وضع الإنسان الحديث

بقلم أريك فروم

حوالي نهاية القرون الوسطى . كان يبدو أن إنسان العالم الغربي يتجه نحو الإنجاز النهائي لأعمق رؤاه وأحلامه . فهو يتحرر من سلطة كنيسة طاغية ، ومن عبء الروح التقليدية ، ومن التحديدات الجغرافية لكوكبنا الذي كان نصفه قد اكتُشف . وقد مارس علماً جديداً أطلق ، فيما بعد ، قوى انتاجية كانت مجهولة حتى ذلك الحين ، وأفضى الى تغيير العالم المادي تغييراً كاملا ؛ وقد خلق انظمة سياسية كان يبدو انها تضمن تفتح الفرد تفتحاً حراً ومثمراً ؛ وضغط وقت العمل ضغطاً أتاح للانسان ان ينعم بفترات فراغ ما كان أجداده يجرؤون على التفكير بها .

ومع ذلك ، فاين نحن الآن من هذا كله ؟

إن خطر حرب إبادة يتهدّد البشرية . ولو فرضنا ان ممثلي البشر السياسيين يحافظون على مقدار من التعقل يجنّب البشرية حرباً جديدة ، فان الوضع البشري ابعد من ان يحقق آمال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر .

لقد تطابقت شخصية الانسان على متطلبات العالم الذي خلقه بيديه . وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، اتجهت شخصية الانسان في اتجاه الاستغلال وتجميع المال ، فكان مجرى حياته محدداً برغبته في استغلال الآخرين وتوظيف ارباحه لاستثمار فوائد جديدة منها . اما في القرن العشرين فقد اتجهت شخصية الانسان بصورة رئيسية في اتجاه التلقي والتجارة . فهو متلقٍّ في معظم اوقات فراغه . إنه المستهلك الأبدي : هو « ملتهم » الشراب والطعام واللفائف والقراءة والسينما .. انه يستهلك ويلتهم كل شيء .

فالعالم الذي هو زجاجة كبيرة وتفاحة ضخمة وثدي واسع هو موضوع هائل لطمعه . ولقد اصبح الانسان الرضيع الذي ينتظر ابداً — والذي يخيب ظنه ابداً .

ولئن كان الانسان العصري مستهلكاً « في حياته الخاصة » فانه « في الحياة العامة » في مشاركته العملية بالمجتمع ، بائع . والواقع ان نظامنا الاقتصادي مركز على وظيفة السوق التي تحدد ثمن جميع البضائع وتنظم نصيب كل منها في مجموع الانتاج الاجتماعي . فليس الضغط ولا التقاليد ، كما كان الشأن في عهود تاريخية سابقة ، ولا الاختلاس ولا الغش ، هي التي تقود نشاطات الانسان الاقتصادية . إنه حر في أن ينتج ويبيع ، ويوم السوق هو يوم محاكمة يجزي جهوده . فليست هي فقط بضائع تعرض وتباع في السوق ، فقد أصبح العمل نفسه بضاعة تباع في سوق العمل في الشروط نفسها من المنافسة المشروعة . ولكن نظام السوق امتد الى ابعد من النطاق الاقتصادي للبضائع والعمل . فقد تحول الانسان ، هو نفسه ، الى بضاعة ، وهو يعيش كما لو أن حياته رأسمال ينبغي توظيفه خير توظيف . فاذا بلغ ذلك ، ادرك النجاح وأعطى معنى لحياته . والا فهي هزيمة وسقوط . إن « قيمته » تقوم على قيمته البضاعية ، لا على مزاياه الانسانية من الحب والذكاء او على طاقاته الفنية . ثم إن فكرته عن قيمته الخاصة مرتبطة بعوامل خارجية ، بنجاحه وبحكم الآخرين . من أجل هذا نراه مرتبطاً بالآخرين ، متوقفاً عليهم ؛ إن أمنه متوقف على انسياقه ، اذا

بحث الشهر العلمي

كاتب هذا البحث ، اريك فروم ، عالم تحليل نفسي ، الماني الاصل . وقد كرّس حياته للتعليم وللبحث النظري ، ولا سيما في تحليل المشكلات الثقافية والاجتماعية . وهو الآن مقيم في نيويورك ، وقد درّس في عدة جامعات اميركية ، ونشر عدداً من الكتب والمقالات أثارت اهتماماً كبيراً وكان لها تأثير قوي . وهذا المقال يعالج وضع الانسان الحديث بين التقدم الآلي والتأخر الروحي .

«الآداب»

عرف الا يبتعد قط عن القطيع اكثر من قدمين .

غير ان الشخصية « العامة » للانسان العصري لا تتحدد بالسوق وحدها . فهي محددة كذلك بعامل آخر وثيق الارتباط بوظيفة السوق . هو شكل الانتاج الصناعي . فان المشاريع تكتسب مزيداً من القيمة كل يوم ، وينمو عدد العمال والموظفين الذين تلحقهم هذه المشاريع بها ، وتُفصل الملكية عن الادارة ، وتحكم المدراء الصناعيين بيروقراطية مهنية تسهر على سير المشروع سيراً منتظماً وعلى اتساعه اكثر من سهرها على الفائدة .

*

ما هو نوع الانسان الذي يحتاج اليه مجتمعنا ليعمل بانتظام ؟ إنه بحاجة الى رجال يتعاونون تعاوناً منتظماً بشكل جماعات كبيرة . ويطلبون ان يزداد استهلاكهم دائماً ويمكن لاذواقهم ان يؤثر عليها بسهولة وان تدرك مسبقاً . إنه بحاجة الى رجال احرار مستقلين غير خاضعين اطلاقاً لسلطة اومبدأ أوضمير ، وهم مع ذلك لا يرفضون ان يؤمروا ، وان يفعلوا ما ينتظر منهم ، وان ينسجموا ، من غير اصطدام مع الآلية الاجتماعية ؛ رجال يسمحون بان يُقادوا من غير لجوء الى الضغط ، وان يُحثّوا من غير غاية الاغاية كونهم يعملون ويشتغلون ويتقدمون . وقد نجحت الرأسمالية الحديثة في انتاج هذا النوع من الانسان ؛ إنه الآلة ، الانسان العبد . إنه عبد بمعنى ان أعماله وقواه قد أصبحت غريبة عليه ؛ فهي تقوم فوقه ، وتعارضه ، وتحكمه بدلا من ان يحكمها . لقد انصبّت قواه الحية في أشياء ومؤسسات . وهذه الاشياء التي أصبحت اصناماً ، لا يشعر بها على انها نتاج جهوده الخاصة ، بل على انها اشياء منفصلة عنه يحترمها ويخضع لها . إن الانسان العبد ينحني امام الأثر الذي صنعه بيديه الاثنتين . إن اصنامه هي قواه الحية بالذات ، في شكل استعباد . وان الانسان ليكفّ عن الشعور بأنه حامل قواه الخاصة وثرواته الخاصة ؛ لقد أضحى « شيئاً » فقيراً ، يتوقف على اشياء اخرى ، خارجة عنه ، قذف فيها مادته الحية .

إن المعنى الاجتماعي للانسان مقذوف في «الدولة» . ولما كان قد جعل من « الدولة » تجسيداً لمعناه الاجتماعي ، فانه يقدسها ، هي ورموزها . إنه يقذف معنى السلطة عنده ومعنى الحكمة والشجاعة في حكّامه ، ونفوسهم ، كالأصنام . وسواء أكان الانسان الحديث عاملا ام موظفاً ام مديراً ، فانه مستعبدٌ في عمله . لقد أصبح العامل ذرة من الاقتصاد ، تحت اوامر منظمة آلية . فليس له اي نصيب في خلق نظام العمل ولا في نتيجته ، وليس له اي اتصال تقريباً بالمنتوج الناجز . اما المدير ، من جهة اخرى ، فمتصل بالمنتوج الناجز ، ولكنه عبد له بصفته شيئاً محسوساً ونافعاً . ان هدفه هو أن يحسن استغلال الرسمال الذي وظفه آخرون ؛ والبضاعة هي التجسيد المجرد للرسمال ، وليست هي شيئاً يعنيه كصفة محسوسة . لقد أضحى المدير بيروقراطياً يحرك الأشياء والارقام والكائنات البشرية على انها موضوعات نشاطه . وقد كان المفروض بان يخص تحريكها الروابط الانسانية ، بينما الواقع ان هناك روابط لا إنسانية على الاطلاق ، روابط بين آلات مجردة .

واستهلاكنا هو ايضاً مستعبد . إنه خاضع للاعلان اكثر من خضوعه لفمنا او عيوننا او آذاننا .

ان الانسان الحديث ، كمواطن ، مستعد لأن يهب حتى حياته لأمثاله ، واما كفرد خاص ، فليس له الاهمّ انانيّ بنفسه . والعمل الخالي من المعنى ، واستعباده ، قد أفضيا الى رغبة في الكسل التام . إن الانسان يحتقر حياته العملية لأنها تجعل منه سجيناً وكاذباً . إنه يحلم بحالة من الكسل المطلق يعفى فيها من كل حركة ويجري كل شيء وحساب شعار « كوداك » الإعلاني : « إضغط الزر ، ونحن نقوم بالباقي . » ومما يقوي هذه النزعة نوع الاستهلاك الضروري لاتساع السوق الداخلية والذي يفضي الى مبدأ اورده « هكسلي » باختصار في كتابة « خير العوالم » . إن بوسعنا ان نلخص العادات التي اكتسبها كثيرون منا ، منذ الطفولة ، بهذه الكلمات : « لا تؤجل ابداً الى الغد اللذة التي تستطيع ان تحصل عليها اليوم . » واني اذ تجنب تأجيل ارضاء رغبتي الى ما بعد (وقد عُودت على الا ارغب الا بما استطيع الحصول عليه) اكون بمنجى من الصراعات والشكوك ، فليس هناك اي قرار ينبغي اتخاذه ؛ وما دمت دائماً منشغلا إما بالعمل واما بالتسلية ، فاني لست قط وحيداً مع نفسي ؛ بل انه ليس لي ان اعي ذاتي . لأنني للاستهلاك ابداً . انني لست الا نظاماً للرغبة والارضاء . وانا مجبر على العمل لأستطيع ان أرضي رغائبي . وهذه الرغائب نفسها ما تنفك تتحرك

وتتوجه بالآلية الاقتصادية .

اننا ندعي الانتماء الى الدين المسيحي ، دين محبة الله والجار . بل نزعم اننا نشهد الآن انبعاثاً للروح الديني . ولا شيء ابعد من ذلك عن الحقيقة . اننا نستعمل رموزاً تنتمي الى ماض ديني فنحولها الى عبارات قابلة لأن تستخدم لاهداف الانسان المستعبد . اننا نستعمل الدين لنعزز وسائل نجاحنا ، وهكذا يصبح الله شريك اعمالنا التجارية .

واما محبة الجار ، فظاهرة نادرة . إن الآلة غير قادرة على الحب ؛ والأمرسواء بالنسبة للانسان المستبعد. وما يطريه اخصائيو الحب ووكالات الزواج ليس هو الا علاقة بين شخصين يتدبران امرهما بمساعدة التكنيك المناسب وليس الحب بينهما الا دريئة لوحدة لا تحتمل ، ليس الا أنانية «ذات طرفين » .

* * *

وبعد، فما هي ، في هذا الوضع ، منظورات المستقبل ؟

اذا صرفنا النظر عن رغباتنا ، فينبغي أن نعترف بان التباعد بين التقدم التكنيكي والعقل يوشك ان يقذف العالم في حرب ذرية . ولعل خير مخرج من مثل هذا الخطر هو تدمير المدنية الصناعية وإعادة العالم الى مستوى زراعي بدائي . واذا تبين ان هذا التدمير كان اقل كمالا مما يظنه كثير من الاخصائيين في الموضوع ، فيترتب على المنتصر ان ينظم العالم كله ويتسلط عليه . وهذا لا يمكن ان يتم الا بواسطة دولة مركزية قائمة على القوة ، والامر سيان بعد ذلك اذا قامت هذه الدولة في موسكو او في واشنطن .

ولكن حتى ولو فرضنا ان بالامكان تجنب الحرب ، فان هذا لا يكفي لأن يبدو المستقبل في حال أفضل . ذلك ان نظام الآلية والاستعباد ، خلال نمو الرأسمالية والشيوعية ، في الخمسين او المئة سنة القادمة ، سوف يستمر في التقدم . فالمبدآن كلاهما ينموان في مجتمع اداري حيث السكان يأكلون ويلبسون جيداً ويرون رغباتهم مستجابة وليست لهم رغبات لا يمكن ان تستجاب ؛ انهم آلات مطيعة في غير ما إكراه ، مقودة من غير قائد ؛ وهم يصنعون آلات تعمل كالبشر وينتجون بشراً يعملون كالآلات ، انهم بشر ينحط عقلهم بينما يكتمل ذكاؤهم ، وبذلك يخلقون وضعاً خطيراً يكون فيه الانسان مجهزاً باكبر قوة مادية ، فيما هو محروم من الحكمة اللازمة للتصرف بهذه القوة .

وبالرغم من نمو الانتاج والرفاه ، فان الانسان يفقد اكثر فاكثر حس شخصيته . إنه يشعر بان الحياة لا معنى لها ، بالرغم من ان هذا الشعور غير واع في اكثره . كانت المسألة تتلخص في القرن التاسع عشر بنظرية : « لقد مات الله» . اما في القرن العشرين ، فهي تتلخص بنظرية « لقد مات الانسان . » كانت اللا إنسانية، في القرن التاسع عشر ، تعني الوحشية . اما في القرن العشرين ، فقد أصبحت تعني استعباداً « شيزوفرانياً » للذات . كانوا في الماضي يعيشون وهم يخشون ان يروا الناس يسقطون في العبودية . اما خطر المستقبل فهو ان يصبح الناس آلات . ولاشك في ان الآلات لا تثور . ولكن اذا اعتبرنا طبيعة الانسان ، فسنعرف ان الآلة لا تستطيع ان تعيش وعقلها سليم . وسوف تهدم عالمها ثم تهدم نفسها لأنها لا تستطيع ان تحتمل ضجر حياة فارغة من اي معنى .

صدرت الطبعة الثانية من كتاب

حياتنا الجنسية

للطبيب الألماني فريدريك كهن

الثمن ٣ ل.ل.

من مواضيعه :

- اسرار الحياة الجنسية
- الخطوبة والزواج
- الحمل والولادة
- العقم واسبابه وعلاجه
- الأمراض الزهرية
- كيف تحل المشكلة الجنسية

٥٠٠ صفحة - ٤٥ لوحة تشريحية

نشر وتوزيع : المكتب التجاري - بيروت

ترى . هل هناك علاج للحرب وللآلية ؟ لعل خير جواب هو في قلب عبارة امرسون « إن الأشياء تمتطي صهوة الانسانية » وجعلها « ضع الانسانية على الصهوة لتمتطي الاشياء » ، يعني ان على الانسان ان ينتصر على استعباده الذي يجعل منه كائناً عاجزاً ولاعقلياً ، كائناً يعبد الأصنام . اما اذا ظللنا في الميدان البسيكولوجي ، فهذا يعني انه لابد من هزيمة التوجيه التجاري ، التوجيه التقني الذي يستعبدنا اليوم ، ولا بد من سلوك طريق منتج يؤدي الى النضوج . ينبغي للانسان ان يستعيد معنى شخصيته ، وان يصبح من جديد قادراً على ان يحب وان يجعل من عمله نشاطاً محسوساً يحتفظ بمعنى ما . يجب ان يترك الطريق المادي ليبلغ مستوى تأخذ القيم الروحية عنده ، كالحب والحقيقة والعدالة ، أهمية رئيسية. ان اية محاولة تقصد الا تغيّر الاّ مظهراً واحداً من مظاهر الحياة ، هو المظهر الانساني او الروحي ، انما هي مرصودة للخسران . والواقع ان اي تقدم يتحقق في ميدان ما ، تكون له نتيجة هدامة على الميادين الاخرى . فالانجيل الذي لم يكن يقصد إلا الخلاص الروحي ، قد ولّد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، والثورة الفرنسية التي كان همها الاوحد الاصلاح السياسي ، قد أفضت الى روبسبير ونابوليون ، والاشتراكية التي لم تكن تنزع الا الى تغيير اقتصادي قد خلّفت الستالينية .

واذ نطبق هذا المبدأ ، مبدأ تغيير يقوم في جميع ميادين الحياة مرة واحدة ، فيجب ان نفكر بالتغييرات الاقتصادية والسياسية التي لا غنى عنها للتغلب على عنصر الاستعباد البسيكولوجي . يجب الاحتفاظ بالنظام الصناعي ، ولكن يجب ازالة مركزية العمل والدولة بحيث نردهما الى أبعاد « انسانية » ولا ندفع المركزية الا الى الحد الذي تحتاجه الصناعة . وفي الميدان الاقتصادي يجب ان تشجع الادارة المشتركة جميع الذين يعملون في مشروع ما ان يسهموا في المسؤليات اسهاماً فعالاً . وليس من الصعب ايجاد اشكال جديدة لمثل هذا الاسهام . واما فيما يخص الميدان السياسي ، فيجب العودة الى المجالس العمومية ، بخلق آلاف من الفرق الصغيرة المطلعة اطلاعاً واسعاً والتي تتجابه في النقاش وتظهر قراراتها في « مجلس تحتيّ » جديد . ولابد من نهضة ثقافية في الامة كلها تشدّ تربية الاطفال والشباب الى فن شعبي جديد .

وكما كان الانسان البدائي عاجزاً امام قوى الطبيعة ، فان الانسان الحديث عاجز امام القوى الاجتماعية والاقتصادية التي اطلقها هو نفسه . إنه يمجّد عمل يديه الاثنتين ، وينحني امام الاصنام الجديدة ، فيما لا ينفك يسبح باسم الاله الذي أمره ان يحطم كل صنم . إن دريئة الانسان الوحيدة ازاء نتائج جنونه انما هي خلق مجتمع متوازن ، مطابق لحاجات الانسان ، وهي حاجات تقوم على شروط وجوده بالذات — مجتمع يمارس فيه الانسان علاقات محبة مع جاره ، مجتمع يرتبط فيه بروابط الاخوة والتضامن لا بروابط الدم والارض ؛ مجتمع يمنحه امكانية تجاوز الطبيعة بواسطة الخلق ، لا بواسطة الهدم ، بحيث يستطيع كل فرد ان يكسب معنى الذات اذا قام بتجربة قيادة نفسه ، لا بالانسياق لسواه ، مجتمع لا يطلب نظام التوجيه والتقوى فيه ان يشوّه الانسان الواقع وان يقدس الاصنام .

إن التقدم هو في اقامة مثل هذا المجتمع ، وليس ذلك « نهاية العالم » ولا « الكمال » ولا الانسجام التام الذي لن يعرف فيه الانسان الصراعات ولا المشكلات . والحق ان قدر الانسان انما يكمن في حياة مليئة بالوان التناقض الذي يريد ان يحله من غير ان يبلغ ذلك ابداً . فاذا تغلب على الحالة البدائية للتضحية الانسانية ، واذا أصبح قادراً على تنظيم علاقاته تنظيماً عاقلا مع الطبيعة ، بدلا من ان يمارسها ممارسة عمياء ، واذا أصبحت الاشياء عبدة له بدلا من ان تكون أصناماً تُعبد ، حينذاك يبقى عليه ان يجابه الصراعات والمشكلات الانسانية حقاً . إن عليه ان يكون مغامراً شجاعاً ، واسع التصور ، جديراً بالألم والفرح ، ولكن ملكاته ستكون في خدمة الحياة لا في خدمة الموت . إن العهد الجديد للتاريخ البشري اذا اتى يوماً ، فسيكون بداية لا نهاية .

اريك فروم

ترجمة « الآداب »